التسوّل
La mendicitè

وصف وفرز:

بالإضافة إلى معنى (سأل) المعروف بمعنى طلب، أو استفسر.. ونحو ذلك، نجد في المعجم كذلك:

سَوِلَ، يَسْوَل، سَوَلاً: كان في بطنه استرخاء تحت السُّرَّة، فهو أسْوَل، وهي سَوْلاء، والجمع سُوْل وتسوَّل البطن: استرخى.

لكن التسوّل مصطلح عرفي يعني طلب الصدقة واستدرار النفقة من الآخرين، والسعي وراء ذلك، واتخاذه مهنة، وسلوك أساليب وحيل وفنون في سبيل ذلك.

هذه الظاهرة الاجتماعية التي قلما يخلو منها مجتمع من المجتمعات القديمة والحديثة، وقد تتخذ في . بعض المجتمعات . مظاهر وصوراً تختلف عنها في مجتمعات أخرى، وقد تكون في هذا المجتمع، أو ذلك، أقوى وأظهر منها في سواه، حتى ليغدو، أو يكاد يغدو مرضاً اجتماعياً خطيراً، ينخر جسم المجتمع، ويهدد سلامه وأمنه.

ففي إسبانيا مثلاً، قلما نشاهد متسولاً يستجدي المارة مباشرة، أو يجلس عارضاً بؤسه وفقره أو عاهته، بل في الغالب الأعم، يلجأ إلى وسيلة أو حيلة ذكية للوصول إلى بغيته، فقد يتقدم إلى المارة من الناس، ممن يتوسم فيهم اليسر والغنى، متلطفاً متأنياً يعرض حاجته ويطلب المساعدة.. وقد يدّعي أنه فقد نقوده. أو ضيع تذكرة سفره أو تعرّض لحادثة سلْب أو نشل..

ومنهم من يتخذ آلة موسيقية أو إيقاعية يتسول بالعزف عليها في أحد الشوارع أو الأسواق. وغيرها من المظانِّ المزدحمة.. وبعضهم يأتي بامرأة وأولاد، مستعارين، ويكتب على لوحة، أو ورقة، أو على الأرض، أنهم أبناء سبيل أو انقطعت بهم السبل استدراراً للشفقة واستثارة للرحمة، وابتزازاً للمال..

ومنهم من يعرض خدماته المختلفة، على السياح والأجانب.. ويلصقون بهم.. فإذا ما أنسوا إلى دماثة ولطف السائح أو المار، وعرفوا منه الخجل والاستحياء، ألحفوا في السؤال، وألحوا في الاستعطاء والاستجداء.

وشبه ذلك نجده في فرنسا، ولاسيما في العاصمة باريس، وأما في مرسيليا (مرساي) Marseille فإن ظاهرة التسول تتخذ أشكالاً ومظاهر أكثر حدة وأخطر، لأنها بؤرة تجمع مواطنين أجانب شذاذ آفاق من جميع الجهات والبلدان تقريباً: من عرب وأفارقة، وهنود، وباكستانيين، وأوروبيين وأتراك، وإيرانيين، وغيرهم..

فقد شاهدت فيها كثيراً من المتسولين، بصور مباشرة وغير مباشرة، كالمنجمين والدلالين والمتسكعين، وأصحاب الحيل والنصابين والنشالين..

أما في المغرب، فإن التسول يأخذ صورة مرض خطير، بل هو شيء عجب، يحير المرء في تحديده، وتصويره، وتعليله، لأنه خليط من الأعمال والممارسات التي تختلط، وتختلف دوافعها وعللها وأسبابها أيضاً، هنا تمتزج المشاعر الدينية مع الأفكار والتيارات الفلسفية، ويتخذ التسول ألواناً من الأنشطة والصور والمظاهر، ويمكن القول إن المغرب أحفل البلدان العربية بالمتسولين، بالإضافة إلى المتشردين وغيرهم.

ففي كل المدن بالمغرب، ولاسيما الكبرى، ترى جيشاً عرمرماً من المتسولين والمتسولات من جميع الأعمار، يتهافتون على المارة يسألون الناس إلحافاً، وكثير منهم قد اتخذ له مراكز ثابتة، وافترش الأرض، يمد يده، ويطلق لسانه بالطلب، ويستخدم دعاء أو كلمات يكررها، أو يتلو شيئاً من القرآن، وترى كثيراً من العجائز، والمقعدين والمتواكلين والعاطلين قد احتلوا مداخل المساجد ومخارجها يسألون المصلين داخلين وخارجين.

وقلما تجد أثراً للمتعففين ذوي الشعور بالكرامة والحياء، الذين تصفهم الآية الكريمة بأنهم (يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف، تعرفهم بسيماهم لا يسألون الناس إلحافاً)[1].

ففي الدار البيضاء مثلاً إحدى المدن الكبرى، وباريس المغرب . كما يقال عنها . تتعجب من كثرة المتسولين، بلْهَ المتشردين وغيرهم تطالعهم وتصادفهم بكل سبيل وفي كثير من الساحات والعرصات والأزقة والمنعطفات.. ولاسيما في الشهر الفضيل (رمضان)، حتى لكأنه موسم المتسولين!.

ومنهم . وأسفاه . من هو . فعلاً . في حالة الممضّ في الألم والفاقة الشديدة أو العجز والشلل، والأمراض المزمنة العُضال.. فتراهم يفترشون الأرض، ويلتحفون السماء! أو يلفّون أجسامهم بأسمال بالية، ويضعون تحتهم خرقة أو جلدة أو كاغداً.. ويمضون هكذا الليالي الباردة، وأيام الشتاء القارسة.. وما أقلَّ من ينتبه إليهم، أو يحفل بهم! فالناس سائرون دوماً إلى غاياتهم لا يلوون على أمثال هؤلاء الذين انتشروا في بعض الشوارع والأزقة، كأكوام القمامة! والناس مشغولون عنهم دوماً بمعاشهم ومصالحهم.

وأنى لهم أن يلتفتوا إلى مثل هذه الأمور التوافه!! كما يقول لسان حالهم، وأفضلهم، وأحسنهم من يتذكر . حين يرى واحداً من هؤلاء . أن يدسَّ يده في جيبه، ويخرج منه دريهمات . أستغفر الله . بل بضعة أجزاء من الرويّلات يرمي بها إليه.. هذا غاية ما يصل إليه الجود والإحسان، والبر الإكرام عند أكثر هؤلاء الناس من المارة!!

ويظنون أنهم قاموا بما يفرضه عليهم الإسلام من زكاة وصدقة، وتضامن وتكافل، وبر وإحسان تجاه إخوانهم الفقراء المساكين والسائلين وأبناء السبيل.

ومن هؤلاء المحسنين الأفاضل من يكتفي من البر والإحسان والعطاء، بموقف الحياد من هؤلاء المساكين والسائلين والمحرومين والأيتام، فلا يقهرهم ولا ينهرهم، ولا يعطيهم كذلك وهو يحدّث بنعمة الله تعالى عليه.

---

[1] ـ البقرة آية (٢٧٣).

وكأنه، على هذا النحو، فهم الآيات الكريمة (فأمّا اليتيم فلا تقهر، وأمّا السائل فلا تنهر، وأما بنعمة ربك فحدث)[1].

ومن أولئك الفقراء المتسولين من عرته لوثة الحمق أو الجنون أو العته أو غيره من العاهات العقلية أو النفسية، فلم يعد يقدر على التمييز، في نفسه، بين الضرر والنفع، بين المسرة والعذاب بين الحر والبرد، بين الجزع والشبع.

فما أكثر ما رأيت من هؤلاء من يعيش في ظروف لا تستطيع تحملها حتى الأوابد من الحيوانات والوحوش!.

ففي ليلة ليلاء شديدة القر والزمهرير، رأيت . وأنا عائد من سهرة لدى أحد الأصدقاء . امرأة مستلقية على الرصيف ورأسها إلى جذع شجرة من شجراته، ليس تحتها أو فوقها أو حولها دريئة تدرأ عنها نهشارة البرد الذي يكاد يجمد الأنفاس، ويتغلغل إلى أعماق العظام! سبحان الله! حتى الكلب الشريد كان يتحرك، في تلك الليلة، باحثاً عن مخبأ من البرد، ويحاول، بالحركة، أن يدفّئ نفسه شيئاً!.

ولست أفاخر أو أرائي، إذا قلت: إني قد رثيت لتلك المرأة، وتألمت، وحرت كيف أساعدها وأخفف عنها محنتها، ولم أرض كل الرضا إذ أعطيتها غطاء (بطانية) من أغطيتي طرحته عليها، مع بعض النقود.

ولحسن الحظ، كانت تلك المرأة المتسولة، شبه الحمقى ظاهرة فريدة، بتلك المدينة، أما في المدن الأخرى كآسفي والجديدة والرباط والدار البيضاء ومراكش.. فما أعم تلك الظاهرة، وأكثرها انتشاراً.

ففي الجديدة، مثلاً، ترى وأنت عائد من سينما، أو مقهى، أو زيارة ليلاً العشرات من المتسولين والمساكين والمتشردين.. يقبعون هنا وهناك، على رصيف الشارع الرئيسي متلففين. والأغطية المهترئة القذرة! من نساء ورجال وفتيان، وأنياب البرد تعضّهم، والبلل والمطر والرطوبة تأكل أطرافهم، وتغلف كيانهم، وفي مدينة مرّاكش الحمراء! ترى من المتسولين والفقراء والبائسين العجب العُجاب!

تعال معي إلى ساحة جامع الفنا! وانظر إلى هؤلاء الشحاذين والشحاذات، وطوائف المشعوذين والمنجمين والسحرة أو مردة السر والألاعيب والحيل.. فهنا المتسولون الطوافون على الحشود من الناس وعلى المارة، وعلى أصحاب الدكاكين والحوانيت والباعة المتجولين، والمتسولون القاعدون على أبواب الجوامع، وقوارع الطرق، والأرصفة.. ففي يوم الجمعة مثلاً ترى جموعاً عدة منهم قد اتخذوا أمكنتهم على طول المماشي المؤدية إلى الجوامع، منهم الفقير المحتاج، والبائس المسكين، والمقعد الضعيف والمريض العاجز.. وفيهم كذلك القوي المتمسكن والقادر المتمارض، والصحيح المتظاهر بالعجز.. وذو المال المتبدي بالفاقة والحاجة..

---

[1] - الضحى آية (٩ - ١١).

ولعل أشد المناظر إيلاماً وأبلغها تأثيراً وهزاً في النفس وتفطيراً للفؤاد تلك الأمهات البائسات اللائي يحملن أطفالهن و يطفن بهم في الشوارع والأسواق أو يعرضنهم على المارة طلباً لثمن الخبز والإدام والتماساً للعون والمساعدة على مصائب الدهر وحوادث الزمان!.

ومن ألوان التسول غير المباشر، تلك المظاهر والصور المختلفة التي يلجأ إليها بعض المتسولين فمنهم الجماعة التي تعلمت شيئاً من النقر الإيقاعي على بعض الدفوف، و(البنادير) فجاءت إلى الساحة تعرضه على أنه نوع من الفن الشعبي الأصيل!.

ومنهم الجماعة التي أتقنت شيئاً من الحركات والألعاب البهلوانية، فأقبلت تعرضه على أنه نوع من الرقص الفلكلوري العجيب!.

وبعضهم جاء بقرود، أو ثعابين وحيات، فأخذ يلاعبها ويعرضها، ويسأل المشاهدين عليها!

ومنهم من جلس يقص الحكايات والقصص، وقد تحلق حوله جماعة من العامة والعابرين.. حتى إذا حكى لهم شيئاً، وشدهم إليه، مدَّ إليهم يده يطلب الأجر أو الصدقة.

وقد ترى بعضهم قد أتى بآلة موسيقية أو إيقاعية وأخذ يضرب أو يعزف عليها بصورة رديئة متقطعة حتى إذا تجمع حوله بعض الناس، راح يمد يده بالسؤال وطلب العون!.

ومنهم من نثر حوله بعض الكتب الصفراء، والأشياء الغريبة، وكتب بعض الطلاسم والرموز على ورقة.. وراح يدعي للناس أنه يستطيع أن يبرئ الأكمة والأبرص، ويحيي الأموات بقراءة، أو لمسة، أو كتابة حجاب أو حرزٍ أو إطلاق بخور، أو تعليق تميمة...!!

ولا يمكن لأحد أن يحيط بكل تلك الصور المظاهر، التي يتخذها أولئك المستولون بطرائق مباشرة وغير مباشرة، ولا أن يفيها حقها من الوصف والتصوير والغوص إلى دقائقها وأحوالها المختلفة، وحسبنا ما عرضنا من النماذج في هذا المجال، ولنحاول الآن بسط الأسباب والعوامل الكامنة وراء هذه الظاهرة.

الأسباب

أ . البطالة:

لعل البطالة هي السبب الأول والأبرز الذي يتبادر إلى ذهن الباحث، ذلك أن البطالة يمكن اعتبارها أم الرذائل، ومفتاح الشرور والمشكلات، أضف إلى ذلك أنها السبب الرئيسي وراء الظاهرات المرضية في أي مجتمع، وأكثرنا قد رأى بأم عينه ما تجره البطالة من المفاسد والموبقات الخسائر على الأفراد والأسر والمجتمعات، وكلنا يذكر كيف حض الإسلام على العمل والاجتهاد والسعي ونهى عن التبطل واللهو والكسل والتواكل والاعتماد على كسب الآخرين.

فالآيات والأحاديث والأقوال والحكم المأثورة في ذلك أكثر من أن تحصى وتحصر، وحسبنا منها ما يحضرني الآن، عفو الخاطر مما سأسوقه، في هذه العُجالة:

قال تعالى: (وقل اعملوا، فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون)[1].

[1] ـ التوبة آية (١٠٥).

(وأنْ ليس للإنسان إلا ما سعى، وأن سعيه سوف يُرى، ثم يجزاه الجزاء الأوفى)[١].

(فاستجاب لهم ربهم أني لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضكم من بعض..)[٢].

(والعصر إن الإنسان لفي خسر، إلا الذين آمنوا، وعملوا الصالحات..)[٣].

والرسول الكريم صلى الله عليه وسلم، ذكر كثيراً من جوامع الكلم في هذا الخصوص، من ذلك مثلاً:

(اليد العليا خير من اليد العليا وابدأ بمن تعول)[٤]، (المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفي كلٍ خير..)[٥]، (لأن يحمل الرجل حبراً فيحتطب به فيبيعه خير له من أن يسأل الناس، أعطوْه أو منعوه)[٦].

وعمر بن الخطاب الفاروق، لا ينسى أحد قولته المشهورة: أرى الرجل فيعجبني، فأسأل: أله حرفة؟ فإن قيل: لا، سقط من عيني!.

وفي كل هذا الذي أوردناه دعوة صريحة إلى العمل، وحث عليه، وترغيب فيه، وتحذير من البطالة والكسل والتهاون والتواكل وزجر وتأنيب لمن يؤثر الضعف على القوة والسؤال على الكسب، والذلة على العزة وتنبيه إلى أنه حتى الجنة ونعيمها لا يمكن لأحد أن ينالهما، إلا بالعمل والجهاد والتعب والنصب، والبذل والعطاء، كيف يستطيع البذل والعطاء من يستجدي ويستعطي الآخرين؟! ولقد قيل: فاقد الشيء لا يعطيه.

وقيل: بالعمل تنال الأمل! وازرع تحصد! ورجلان فاشلان: رجل يفكر ولا يعمل، وآخر يعمل ولا يفكر!.

ولقد ذُكر الفراغ على أنه نوع من البطالة المفسدة للمرء، بالإضافة إلى وفرة المال، وفورة الشباب، وفي قول أبي العتاهية:

إن الشـــباب والفـــراغ والجـــدةْ

مفســـــدة للمـــــرء أي مفســـــدة

ولنذكر هنا أيضاً أن الأمم إنما تقدمت وترقت وسبقت غيرها بالعمل والنظام والسعي وراء هدف جلي سام، ومثل أعلى مرسوم.

وإذا ما أردنا أن نعرّف البطالة فأول ما يتبادر إلى فكرنا أنها عدم توفر فرص العمل للقادرين عليه، أي إنها ظاهرة خارجية مفروضة، لا دخل للشخص العاطل بها.. مع أن المتفحص المتبصر يرى أن هناك أشخاصاً يميلون إلى البطالة والكسل والإهمال بطبعهم، ويؤثرون الراحة والاسترخاء والهمود، على

---

١ ـ النجم آية (٣٨ ـ ٣٩).
٢ ـ آل عمران آية (١٩٥).
٣ ـ العصر آية (١ ـ ٢).
٤ ـ البخاري ومسلم.
٥ ـ مسلم.
٦ ـ متفق عليه.

الحركة والسعي والاجتهاد، وعندهم فلسفتهم أو نظرتهم الخاصة بهم، يعللون بها الأحياء والأشياء ويخلقون بها مسوّغاً لسلوكهم وتصرفاتهم.

وهناك طائفة من الناس فهموا أو أُفهموا الأفكار الدينية فهماً خاطئاً أو معكوساً!. فظنوا أن الدين عبادات وصلوات وأدعية.. ليس إلا!.

ومن هذا الفهم الخاطئ أو المعكوس انطلقت تلك المقولة التي يرددها دائماً أعداء الأديان، ولاسيما الإسلام، ويرددها معهم أناس تبع لهم، إمّعة! لا يعون ولا يفقهون.. يرجعون الكلام كالببغاء، ويقلدون غيرهم كالقرود، وتلك هي: (الدين أفيون الشعوب)!!.

والبطالة ـ كما قيل ـ منها الظاهرة الواضحة ومنها المقنَّعة، ويقصد بالأخيرة تلك البطالة الناجمة عن الكساد العارض لبعض فروع الإنتاج، أو إعلان الإفلاس لدى بعض المؤسسات والشركات، أو توقف أحد قطاعات العمل، بسبب من الأسباب.

والطالة، على هذا، قاسم مشترك بين جميع المجتمعات سواء المتقدمة أو النامية والقديمة أو الحديثة.. ولكنها على درجات متفاوتة، فهي قد تتفاقم في مجتمع دون آخر، وقد تختلف نسبة الأضرار والمشاكل الناتجة عنها أيضاً، من مجتمع لآخر، تبعاً للإجراءات والأدوية التي يتخذها هذا المجتمع أو ذاك لعلاجها أو للتخفيف من شدتها وويلاتها. وتطالعنا الصحف والمجلات المختلفة كل يوم، بأخبار عن البطالة في أنحاء من العالم، وعن الملايين العاطلة أحياناً في هذا البلد أو ذاك، حتى في الدول الصناعية المتقدمة.

لكن نظام الضمان الاجتماعي وغيره من الأنظمة الإنسانية الطيبة، التي نسمع أن كثيراً من هذه الدول قد أخذت بها، وطبقتها، قد خففت كثيراً من آثار الضرر والفساد والعذاب التي تسببها البطالة للعاطلين، وأسست عديداً من الآلام والجراح، وحدّت من انتشار وتفاقم طائفة من الأدواء والمشكلات الاجتماعية..

فعندما يكون للعاطل عن العمل دخل معقول مقبول، يسد بعض حاجاته الضرورية، ويقيم أوده ريثما يجد العمل المناسب ذا الدخل الكافي فستنتفي في نفسه أكثر الدوافع للسؤال والاستجداء، وللانحراف والجنوح أيضاً.. وكم كان حقيقاً بنا ـ نحن العرب والمسلمين ـ أن نكون سباقين إلى مثل تلك الأنظمة الكريمة الرفيعة، وبين أيدينا كتاب رائع عظيم، قال فيه منزله (إن هذا لقرآن يهدي للتي هي أقوم ويبشر المؤمنين..)[1].

وتجد فيه أيضاً: (والذين في أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم)[2].

وجعل الزكاة فرضاً على الأغنياء (للفقراء، والمساكين، والعاملين عليها، والمؤلفة قلوبهم، وفي الرقاب، والغارمين، وفي سبيل الله، وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم)[3].

---

[1] ـ الإسراء آية (٩).
[2] ـ المعارج آية (٢٤).
[3] ـ التوبة آية (٦٠).

ومما لا ريب فيه أن بعض أسباب البطالة نفسي، شخصي، يتعلق بالعاطل نفسه، فقد يأنف هذا الشخص أو ذاك ممارسة عمل أو حرفة سانحة، لاعتقاده أنها لا تليق به، أو لا تشرّفه.. بعد أن يكون وضع، نصب عينيه، مركزاً معيناً، أو مرتبة مرموقة ما، فتراه يروح ويجيء عاطلاً يتربص وينتظر، وأمثاله من هذا القبيل كثر.

وقد يركن بعض الناس إلى الراحة والهدوء والتمطي والاسترخاء، ويعتادون ذلك، فإذا ما عرضت لهم فرصة عمل، ضيّعوها، وأهملوها، ومضوا فيما هم فيه سادرين لاهين، يدافعون الأيام، وغالباً ما يكون هؤلاء ممن يجدون في بيوت آبائهم أو ذويهم القوت والمأوى، أو يلتقطون الفتات والدريهمات من سبل مختلفة..

وعلى النقيض من هؤلاء وأمثالهم، نرى كثيراً من الناس ذوي كرم وإباء وشمم، يعز عليهم أن يتعطلوا أو يكسلوا، وأن يأكلوا من غير كدهم وتعبهم، وأن يعيشوا إلا من عرق جبينهم، وعمل أيديهم ومساعيهم فأوجدوا طائفة من الخدمات الحرة، واستحدثوا جملة من الصناعات والمهن، لم تكن موجودة قبلهم، ولا نغالي إذا قلنا: إن الدافع المباشر، والسبب القريب لهذا الإيجاد والاستحداث، هو الحماس والحاجة إلى العمل، بالتالي إلى الكسب الشريف، والتخلص من البطالة التي تعني الفاقة والعوز، والذّل والحرمان.. وكم من مهنة كانت في بدايتها ضعيفة مرذولة قليلة الرواج، غدت في زمن يسير قوية مرموقة رائجة.

وكم من مهنة تبدو لنا في مظهرها تافهةً أو حقيرةً، درّت على أصحابها والعاملين بها الملايين، وعمرت من ورائها الدور والقصور، وأنفقت على عديد من البشر، ليصبحوا متعلمين مثقفين، ويتبوؤوا مناصب هامة، ومراكز عالية في الدولة.

وفي أسماء وألقاب كثير من الأسر المرموقة الكبيرة، في بلاد الشام وغيرها، دليل قاطع على هذه الظاهرة، وبرهان لا يُرد على أفضال وفضائل المهن والحرف على أهلها وأربابها، نجد مثلاً، من هذه الأسر، أفراداً يتسمون وظائف سامية، أو يحتلون مراتب اجتماعية عالية، ومنهم أصحاب ثروة وغنىً، وأهل وجاهة وصيت وشهرة طيبة، كأسر: الحداد، والحفار، والصباغ، والدباغ، والفرّاء، الجلاد، والكزبري، والجبان، والخياط، والنجار، والمنجّد، والسّمان، والطحان... إلخ.

تصورْ منشأ وبداية تلك الحرف والمهن والأعمال، تجدِ البطالة والفراغ أولاً، ثم الاندفاع والحاجة إلى ملء هذا الفراغ، وشغل تلك البطالة، بعمل مسل ومربح ومطلوب، تلك الحاجة المركبة المختلطة بالحاجة إلى المال، أو ما يعادله من المقادير والقيم.. فالمهمة والتوجه الشخصي الطوعي نحو العمل والحركة والإنتاج والإبداع... ثم صار كل عمل مكملاً للآخر، وكل مهنة متمة للأخرى، استجابة لحاجات الإنسان ومصالحه وما يتصل به من حيوان ونبات وجماد.. وفي ظني، بل اعتقادي أن العاطل عن العمل إذا ما أعمل فكره ورأيه، وشحذ إراداته وطرح جانباً أنفه وقرفه، وتخلى عن كسله ورخاوته وأوهامه، وفك عنه إسار عاداته ومألوفاته وتقاليده.. فإنه سرعان ما يجد لنفسه عملاً ما، أو مهنة تكفيه وتأويه

وتغنيه فإن لم يجد فسيخلق هو لنسفه هذا العمل، أو تلك المهنة، مما تتفتق عنه بنات أفكاره، ودوافع احتياجاته، واحتياجات من حوله، وما سدت، على امرئ، أبواب رزق، إلا فُتّحت أبواب رزق غيرها، وسبل اكتساب أكثر منها.

كل ذلك لا ينفي مسؤولية الدولة والأفراد الأغنياء، والجماعات الميسورة، وأصحاب رؤوس الأموال عن توفير فرص العمل لكل قادر عليه، وامتصاص الأيدي العاملة العاطلة، واستغلال جميع الطاقات والثروات والخبرات المتوفرة المتاحة، لصالح مجموع الشعب والأمة، والقضاء على سائر مظاهر الفقر والبؤس، التعاسة والشقاء، والمسكنة والضعف، وتأهيل وإعانة المعوقين والمقعدين، ولمّ المشردين والمنبوذين والمحرومين، وإيوائهم وإعدادهم للحياة الصالحة الكريمة، وسنّ القوانين الضامنة الكافلة لحماية المجتمع من كل أسباب الهوان والضعف والانحطاط بما يتفق وروح الإسلام الحكيم، وتشريعاته السماوية والسمحاء.

ب ـ العاهات والعلل، والأمراض المزمنة:

كالعمى، والبكم، والصمم، والقطع، والبتر، والحدب، والقزم، والفطس الشديد، والحروق الكبيرة، والعته والحمق، والصرع والجنون، والأمراض العُضال المزمنة كالشلل والسل والنقرس والبرص والسرطان، والجُذام، والعجز.. إلخ.

فأكثر المتسولين هم من خلق الله المصابين بأحد هذه العاهات والعلل والأمراض.. رغم الإيمان والادعاء، في هذا العصر، بتقدم الطب، والعلم واختراع الأدوية، استحضار العقاقير، والإبداع في أساليب الفحص والتشخيص والتحليل والعلاج!.

ولئن استفادت الدول المتقدمة الغنية من ذاك التقدم، فآوت العميان والصم والبكم.. مثلاً في مؤسسات تربوية مهنية، يتخرجون منها أعضاء عاملين منتجين، وأوجدت مؤسسات تأهيلية للمعوقين الآخرين، ووضعت الأمراض المزمنة في المشافي المختصة للاستشفاء وللتداوي، فلم تعد ترى في تلك المجتمعات واحداً من هؤلاء المعوقين والمرضى إلا في القليل النادر، فإن مجتمعات الدول النامية الفقيرة . ومنها أكثر المجتمعات العربية والإسلامية . ما تزال تزخر بجيش جرار من هؤلاء! يجوبون شوارع وساحات المدن الكبيرة، والعواصم، مع الأسف المرير، يستجدون ويسألون متخذين، من عللهم وعاهاتهم وأمراضهم، بضاعة يعرضونها على الناس، يستدرون بها عطفهم وشفقتهم ورحمة قلوبهم:

ولست أنسى أو أتناسى، ما قامت به بعض الحكومات العربية من جهود مشكورة، لمعالجة هذه المشكلات الهامة ذات الطابع الإنساني العام، غير أنها . كما أعتقد . ما زالت دون المستوى الشامل المطلوب، ولاسيما ونحن نتوق إلى الحلول الجذرية الحاسمة، التي رسم الدين الإسلامي الحنيف قواعده قبل كل النظم والتشريعات الأخرى.

إن هؤلاء من أصحاب العلل والعاهات والأمراض، قم مشمولون . بلا أدنى شك . بالأوجه الثمانية التي تُنفق الصدقات (أي الزكوات) وجوباً، بعد تحصيلها، وجوباً أيضاً . من الأغنياء القادرين على أدائها، دون إضرار بمصالحهم الخاصة، أو مساس لحرية تصرفهم بأموالهم وممتلكاتهم، بعد دفعها.

ج . الطلاق:

وهو فصل أو انفصال الزوجين أحدهما عن الآخر بسبب من الأسباب التي سنعرض لها حين التصدي إلى الطلاق ظاهرةً مرضية من الظواهر الاجتماعية، كالتسول، والتشرد وغيره.

أما هنا فإننا نعرض للطلق على أنه سبباً فقط من أسباب التسول، ولاسيما حين يقع بين الزوجين بعد إنجاب عدد من الأولاد، وحين تكون الزوجة فقيرة لا حلية لها ولا مهنة ولا كسب، ولا عائل ولا معين.

ما الذي يحدث إذن، بعد وقوع الطلاق في تلك الحالة؟ الغالب أن الزوج سيبتعد عن مطلقته وأولاده باحثاً عن زوجة أو امرأة أخرى، وإذا حالف الحظ المطلقة، فأمكن للقاضي أن يحكم بشيء من النفقة للأولاد على أبيهم، فستصل هذه النفقة الضئيلة القليلة إلى يد المسكينة المطلقة، لتنفقها على نفسها وأولادها في بضعة أيام، ثم لا شيء للأيام الباقية! ماذا تفعل إذن فإذا كانت، لا تزال تحتفظ بنصيب من نضارة وشباب، وجمال وصبا . وهي إنسان ذو غرائز وحاجات جسدية ملحة، لا يماري في ذلك إلا مكابر أو جاهل . وكانت لا تملك الزواجر والروادع المقنعة الكافية، هوت إلى أحضان الرذيلة، وأهملت أولادها، فتركتهم إلى شبح التسول والتشرد أو جرّتهم معها، وأدخلتهم في مجالها ومعتركها.

وإن كان لها رادع من دين أو خلق، أو أهل أو عمل تخلقه لنفسها، مرت الأمور بسلام.. وبلغت بر الأمان.

أما إذا لم يكن لها من ذلك نصيب، ولم تكن تملك من الشباب والفتوة والجمال بقية، فإنك واجدها . لا محالة . بين المستولين والمتسولات في الشوارع والطرقات، مع أولادها، أو منفردة وما أسوأها من عاقبة.

ولو أنك . يا قارئ . قمت الآن، فتجولت في شوارع الرباط، أو الدار البيضاء، أو آسطي أو الجديدة، أو مراكش.. لوجدت، على الأرصفة، عدداً لا يستهان به من هؤلاء المتسولات المطلقات أو الأيامى.. يفترشن الأرض مع أولادهن، أو يطفن بهم أو وحدهن يسألن الصدقة والمعروف من المحسنين.

ولسنا بناسين أو غافلين عن أولئك اللواتي، والذين اتخذوا من التسول مهنة أتقنوها، واستكملوا عدتها، فمنهم من يستأجر أو يستعير الأولاد ليسأل بهم، ومنهم من يتكلف العمى أو العته أو أية عاهة أو علة، ليسأل بها ولقد قيل لي: إن من المستولين طائفة غنية، تملك الدور والعقارات، والأرصدة في البنوك! وهم ما انفكوا يسألون الناس إلحافاً!!.

وأبو عثمان الجاحظ، في بعض كتبه، قد أشبع هذه الطائفة وصفاً وتتبعاً وإحاطة وسخرية وتهكماً وتندراً ولعله كفى غيره المؤونة في هذا السبيل.

د . التشرد:

وهو الابتعاد، أو الاضطرار إلى الابتعاد عن جو الأسرة، وحظيرتها ونظامها، بسبب انفراطها وتصدعها بالموت، أو الطلاق، أو الكوارث المختلفة وغالباً ما يصيب الأولاد اليتامى أو المطلقة أمهاتهم، أو الأولاد الضائعين أو اللقطاء، أو الهاربين من ظلم وقسوة زوجة الأب أو الأب أو الولي، أو الشاردين من الريف المحروم، من الأسر الفقيرة، إلى المدينة، حيث يتراكمون، ويتكاثرون، يبحثون عن عمل يقتاتون منه، وعن مأوىً يأوون إليه فلا يجد أكثرهم ذلك فيلجؤون إلى التسول والاستقصاء أو الجنوح إلى الرذائل أحياناً.. وترى بعضهم، إذا لم يجد المأوى، استلقى أو نام في مداخل الأبنية الكبيرة، وعتبات الأبواب، ومنعطفات الجدران، وزوايا البيوت والحدائق وغيرها.. والأمر يهون في الصيف، إما في فصل الشتاء القارس، أو البرد العنيف فإن الحالة تبدو أقسى وأمرّ، وأخطر من كل تصوّر، إنها جريمة لا تغتفر، بحق المجتمع أجمع، إذا سكت المجتمع وتغافل عنهم، ورضي بوضعهم هذا الموضع الظالم الشنيع، وجريرة في عنق أهلهم وذويهم، الذين تركوهم يتشردون ويضيعون، وويل للرعاة المسؤولين أمام الله! وكل راع، عن رعيته يُسأل ويحاسب كما أخبر الرسول (عليه السلام): (كلكم راعٍ وكلكم لمسؤول عن رعيته...)[1]. حسب طاقته ووسعه.

هذه هي أبرز أسباب التسول، في نظري، وإن كان هناك أسباب أخرى فليست، من الأهمية بحيث نرى ذكرها وتفصيلها ضرورياً، وحسبنا ما أوردناه مثلاً للأسباب كافة.

ولننتقل الآن إلى سرد وبحث نتائج ظاهرة التسول، التي حاولنا رصدها وتحديدها وفرزها عن غيرها من الظواهر.

النتائج والعواقب:

A . الإضرار بالشخصية المتسولة:

إذ لاشك في أن عملية التسول، قائمة على أساس احتياج المتسول إلى الآخرين، الذين يملكون أو يفترض المتسول أنهم يملكون ما هو بحاجة إليه، ومادام محتاجاً إلى هذا الشيء، فإنه أسير مالكه، ويسترحم ويستعطف، ويصطنع، في ذلك، الأساليب والحيل، والمذلة والمسكنة، حتى يناله أو ينال بعضه، ولقد قيل: أحسن إلى الناس تستعبد قلوبهم! وقيل: أنفق على غيرك تكن أميره! واحتج إليه تكن أسيرهُ واستغنِ عما عنده تكن نظيرهُ!.

نخلص من ذلك إلى أن في السؤال الاستجداء.. مذلة للنفس وإراقة للمروءة وماء الوجه. وقضاء على كرامة الإنسان، التي كرمه بها رب العالمين (ولقد كرّمنا بني آدم، وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا)[2]. بعد أن سخَّر هلم ما في السموات وما في الأرض جميعاً، لينعموا به ويسعدوا، وينالوا من الطيبات في الدنيا قبل الآخرة، دون إسراف ولا مخيلة.

---

[1] ـ البخاري ومسلم.
[2] ـ الإسراء آية (٧٠).

وفيه . أي التسول . تجرد، أو تجريد، في حالة الاضطرار من الإنسانية، ومن العواطف النبيلة السامية لأنه يُشعره بعدم المساواة، وغياب العدل والعدالة بين إخوته في الإنسانية، ومواطنية في المجتمع، وشيئاً فشيئاً يفقد المتسول كرامة الإنسان في نفسه، وشعور المواطنة، وبالتالي يفقد الشعور بالمسؤولية والتكليف، على أغلب المستويات، وربما تحول إلى حاقد على المجتمع، غاضب على الناس، ثائر بكل القيم والفضائل، فإلى مجرم منحرف، يعيث في البلاد والعباد فساداً، ويزرع فيهما الخراب والدمار.. ولذلك أوصى الله تعالى، ورسوله الكريم بالفقراء والمساكين، وغريهم من المحتاجين خيراً، وجعل لهم حقاً معلوماً من الزكاة يُدفع إليهم بلا أدنى منّ أو إيذاء بكلام أو غيره وبدون أي تفضل أو رياء أو تبجح.

ودعا الله سبحانه المؤمنين، إلى دفع صدقات التطوع إلى المحتاجين، دون اتباع ما أنفقوا مناً ولا أذىً، وحض، في أحيان كثيرة، على الأداء والمساعدة سراً وجهراً، لكي لا يسبب مهما يكن أي حرج أو إساءة أو ضرر وصور الرسول (صلى الله عليه وسلم، المؤمن المنفق سراً بأنه لا تعلم شماله ما أنفقت يمينه)[1]، كل ذلك بغية المحافظة على كرامة الإنسان والمنفق عليه، وصيانة مروءته وإنسانيته، وإشعاره بالأخوة المجتمعية، والإيمانية، والإنسانية وليس ذلك فحسب، بل أوجب الله سبحانه، حقاً معلوماً من الزكاة للمدينين ولضعفاء الإيمان، ولذوي الحاجات العارضة من أبناء السبيل وغيرهم.. يؤدي إليهم قبل أن يطلبوه، بلا مَنّ ولا أذىً ولا إساءة من أي نوع، تحقيقاً للعدل والمساوة والتضامن والتكافل وإشاعة المحبة والتعاون بين الجميع، وحفظاً لمروءة والكرامة.

B . حرمان الوطن والأمة من طاقة المتسول وإنتاجه:

وليس من شك . كذلك . في أن المتسولين هم عالة على غيرهم من الناس، مستهلكون غير منتجين، في الأعم والأغلب، يعتمدون على مكاسب ومساعي الآخرين، وبذلك يحرم الوطن ومجموع الأمة من طاقاتهم المهدورة، ويخسر مجتمعهم وشعبهم ذلك الإنتاج الهائل الذي كان يمكن أن ينتجوه ويغلّون، فيما لو كانوا عاملين منتجين، لا متسولين معولين!. ولا تستهينن بهذا الإنتاج، وتلك الطاقة حسبك أن تجري عملية حساب وإحصاء بسيطة، لتتبين ذلك العدد الضخم من المتسولين في طول البلاد وعرضها، وتلك النسبة المخيفة من الطاقات المهدورة، والإنتاج الضائع كل سنة.. فالحكومات والمخططون للمستقبل، مرافق الحياة، مدعوون إلى إعادة النظر في أمر هؤلاء المشلولين، وإيلائهم العناية الكاملة وتوفير الحلول الجذرية لهم، لإعادة البسمة، والإشراقة لكل بني آدهم، ومحو أسباب الشقاء والتعاسة والحرمان...

C . تشويه سمعة البلاد من عدة نواح:

فالمتسولون يسيئون . من حيث لا يدرون أو يدرون . إلى سمعة وطنهم وأمتهم، أمام السياح والزائرين من الأمم والأوطان الأخرى وذلك بعرض أمراضهم وعاهاتهم وعللهم وشوهاتهم وإبداء أسمالهم البالية، وثيابهم القذرة وعريهم المقرف، وعوراتهم الفاضحة.. والحقيقة أنهم ليسوا المذنبين الحقيقيين ولا

[1] ـ من السبعة الذين يُظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله، (ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه). البخاري.

المسيئين المسؤولين، إنما المسؤول الحقيقي، المسيء الصريح هو النظام، والقائمون على تطبيقه، والجهاز العام، التشريعي والقضائي والإداري والتنفيذي.. فإلى هؤلاء ينبغي توجيه أصابع الاتهام واللوم، وعليهم إلقاء المسؤولية، في الدرجة الأولى، لأنهم الرعاة وكل راع مسؤول عن رعيته، والمتسولون فئة من الرعية.

وتشويه السمعة، على الناحية السياحية والاقتصادية فحسب، بل تتعدى ذلك إلى النواحي السياسية، والأخلاقية، والدينية وغيرها.

كيف يُسيء التسول إلى سمعة البلاد السياسية والدينية والأخلاقية.. ويُضر بهذه النواحي؟

بَدَهيّ أن القوة السياسية هي الامتداد التكميلي للقوة العسكرية، ووجهها الآخر، وأن هذه القوة العسكرية هي بدورها الامتداد للقوة الاقتصادية والمرآة المعبرة عنها، في أي بلد، أو أية أمة..

نستخلص مما تقدم أن أي ضرر يلحق بالقوة الاقتصادية، تنعكس آثاره . لا محالة . على القوة السياسية، القوة العسكرية أيضاً فهناك علاقات تأثير وتأثر جدلية بين القوى المختلفة للدولة أو الأمة.

والإساءة إلى سمعة البلاد السياسية ناجمة عن كون التسول ظاهرة محسوبة من عيوب السياسة الداخلية للدولة، ودليلاً فاضحاً على عجز الجهاز العام عن علاجها وحسمها، ولما كانت السياسة الداخلية جزءاً أو شطراً لأختها السياسة الخارجية، فقد تحققت الإساءة وعم الضرر السياسة العامة جميعاً للدولة ويمكن أن يقال مثل ذلك و نحوه فيما يتعلق بالناحية الأخلاقية والدينية.

فإذا كنا ننادي بأننا (خير أمة أخرجت للناس)[1] وأننا جملة رسالة خالدة، تخرج الناس من الظلمات إلى النور، وأننا أصحاب مكارم وأخلاق سامية وفضائل وأن لدينا حلولاً ناجعة حاسمة لكل مشكلات العالم، فإذا رأى الراؤون هذه الأعداد الضخمة من المتسولين والمشردين والمتصعلكين.. عندنا فماذا يقولون؟

أغلب الظن أنهم يصدقوا لنا قولاً! ولن يرعوا لنا إلاً ولا ذمةً، ولن يحترموا لنا عهداً ولا ميثاقاً، لأنهم سعتبروننا كَذَبةً أفاكين، ساقطين أخلاقياً ودينياً، وسيقولون عنا: إن هؤلاء عاجزون عن حل أبسط مشكلاتهم، فاشلون في إدارة أمورهم وشؤونهم ومصالحهم.. فكيف ولمَ يدّعون ما يدّعون، وينادون ويتشدقون ويصرخون؟!.

D . التسول يلد مزيداً من المتسولين:

والمتسولون يزيدون شهراً عن شهر وسنة عن سنة، وخاصة في المغرب، كيف، ولماذا؟

الجواب: لأن كثيراً من المتسولين يبدؤون محتاجين أو مجرمين أو مقلدين.. وينقلبون محترفين دائمين، ومورثي مهنة، ومعلمي احتراف، بعضهم يتخذ التسول مهنة أبدية لا يقلع عنها، حتى ولو سنحت له فرصة عمل طيبة وكسب شريف، لاعتياده وإلفته، وموت كرامته، واضمحلال مروءته.. ويعلمها أولاده... حتى الإتقان، فإذا مات خلفوه في المهنة.. وربما درب عليها آخرين غير أولاده، فأضاف إلى المتسولين أفواجاً!!.

[1] ـ إشارة إلى قوله تعالى: (كنتم خير أمة أخرجت للناس، تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله). آل عمران (١١٠).

أضف، إلى ذلك، لأفواج الطارئة على التسول، من ذوي الحاجات والعاهات والأمراض المستجدة، لأن المجتمعات، ولاسيما النامية المتخلفة منها ما انفكت تلد، كل حين، من هؤلاء، جديداً! والحبل على الجرار، ودولاب الزمن دوار!.

وقد تسألني: كيف تموت الكرامة، وتضمحل المروءة عند المتسول، على مر الزمن، واستمرار العادة؟ فأقول: إن سلطان العادة، أقوى من كل السلاطين، فمتى اعتاد الإنسان شيئاً أصبح بعضاً منه، وغدا هذا الإنسان أسير عادته. سواء أكانت خيراً أم شراً، وفي هذا الصدد يحضرني قول أبي الطيب المتنبي:

لكل امرئ من دهره ما تعودا

وعادات سيف الدولة الطعن في العدا

وقوله:

من يَهُن يسهل الهوانُ عليه

ما لجرح بميت إيلامُ!

وفي القرآن الكريم، كثير من الإشارات إلى أثر العادة وسلطانها على النفوس التي لا تحكم العقل، ولا تعمل الرأي، ولا تنصاع إلى الحق متى ظهر، جهلاً وضلالة، أو عناداً واستكباراً، كنفوس الكفار والمشركين والمنافقين.. إذ كانوا عند ما، يُسألون مثلاً: لماذا تعبدون هذه الأصنام التي لا تنفع ولا تضر؟ أو لماذا لا تتبعون ما أنزل الله من الهدى والحق المبين؟... يجيبون: (إنا وجدنا آباءنا أمة وإنا على آثارهم مقتدون)[1]، أو (بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا..)[2]. إنها إذاً العادة الآسرة، التقليد الأعمى الذي يستمر، فيصبح عادة مستحكمة.

E . إساءة التسول إلى الأطفال والأهل:

أولاً، لابد أنه قد لفت انتباهك، وراع فؤادك ذات يوم، منظر رجل أو امرأة تفترش الرصيف وقد نثرت أمامها على الأرض العارية الباردة، عدداً من الأطفال الصغار أشباه الحفاة العراة، الملوثين، بل الغارقين في القذارة والرثاثة والشقاء والبلاء قد فرضت عليهم حالة الطوارئ، فلا لعب ولا حركة، ولا تسلية ولا ضحكة، ولا ابتسامة ولا كلمة.. تعرضهم على المارة، تستدر بهم الشفقة والإحسان، وتسأل العون والمساعدة بني الإنسان.

وسواء أكانوا أولادها أم أولاد غيرها، فهم أطفال على كل حال بريئون، مساكين، محرومون معذّبون، وبلا ذنب لهم ولا جناية، لماذا؟؟

لماذا يقضي عليهم أن يعيشوا هذه الطفولة البائسة؟ وفوق هذا يضيّعون، ويضيّع حاضرهم ومستقبلهم!! إذ سيشؤون ويكبرون متسولين.. أللهم إلا إذا أدركت أحدهم يد العناية الربانية فأنقذتهم! سر

---

[1] ـ الزخرف آية (٢٣).
[2] ـ لقمان آية (٢١).

في احد الشوارع الرئيسية بالرباط، أو الدار البيضاء أو الجديدة أو آسفي أو مراكش.. أو حتى في دمشق وحلب وسواهما تجد ذلك المنظر المؤذي المخزي مراراً، ويطالعك في الشوارع والساحات والأسواق تكراراً.. فهل لك أن تقدر عدد هؤلاء الأطفال الذين يُجنى عليهم، ويظلمون، وتطفأ ابتساماتهم إطفاءً وتود حياتهم في المذلة والهوان، والضياع والحرمان وأداً؟

ولو اقتصر هذا الضرر، وتلك الإساءة على الأطفال فقط، إذاً لهان الخطب، ولكنه يتجاوزهم إلى أهل المتسول، وذويه وأقاربه فيلحق بهم المذلة والمهانة، ويشركهم بالدناءة والفضاضة.. وقد يغري بعضهم ويدفعه إلى التسول ويشجعه على سلوكه، جاعلاً من نفسه القدوة الحسنة في هذا السبيل!!.

تلك هي أكبر وأظهر النتائج والعواقب المتولدة من ظاهرة التسول، ولنأخذ الآن، ببيان ما نراه من الحلول والعلاجات المقترحة:

الحلول المقترحة أو العلاج

إذا تصورنا أن المجتمع كالجسم البشري، وأن ظواهره المرضية، هي كأمراض هذا الجسم، وأن ظاهرة التسول في أي مجتمع بمثابة مرض خبيث في هذا الجسم، وكما أن لتلك الظاهرة الاجتماعية أسباباً وراء حدوثها وتفاقمها واستمرارها.. فإن للمرض الجسمي أسبابه أيضاً، ولنأخذ مثلاً هبوب الريح أو هطول المطر أو حر الشمس أو تلوث المياه وما إلى ذلك مما يسبب أذىً أو مرضاً للجسم فإن أول خطوة في طريق العلاج هي الحماية من تلك العوامل ومن البدهي أن لا حادث بدون أسباب، وأنه إذا انتفت الأسباب بطل الحدث، فلنا أن نتصور إذاً، أن التغلب على أذى الريح والمطر والشمس والتلوث إنما يكون بحماية الجسم من تأثير هذه العوامل بطريقة من الطرق، وهو أول الطريق إلى العلاج والشفاء.

انطلاقاً من هذا المثل البسيط، نستطيع القول: إن الحلول الصحيحة الناجحة، في تصوري هي قطع روافد ومنابع الظاهرة أولاً، ومعالجة الظاهرة نفسها، في الوقت ذاته.

ثانياً: وهذا يعني القضاء على ظاهرة التسول، أو معالجتها، لمنع تأثيرها، أو الحد من تأثيرها . على الأقل ت ومعالجة الظاهرة نفسها ولنعد إلى هذه الأسباب مشفوعة بتلك المعالجة المقترحة:

I . علاج البطالة:

أرى أن العلاج يكمن في أشياء منها ما هو ذاتي نفسي، ومنها ما هو موضوعي خارجي:

أ . الصبوة إلى العمل: وهو أن يريد المرء العاطل ويحب ويتوجَّه إلى عمل ما، من تلقاء نفسه، تحدوه الرغبة والحاجة إلى التحرك، والسعي لكسب قوته وسد حاجاته، كما يتحرك ويسعى أي طائر في الجو أو أية دابة على الأرض، أو أي مخلوق في جوف البحر.

ب . التشغيل: وأعني به توفير فرص العمل، بأجوره وشروط مناسبة، لكل قادر عليه، وهو لا يجده بنفسه، وهذا واجب على أولي الأمر، وعلى الحكومات بأجهزتها وإمكاناتها ووسائلها المختلفة، وعلى ذوي الغنى والثروة أيضاً.

ج . الضمان الاجتماعي: وهو يحقق عن طريق سن القوانين الدائمة التي تضمن للعاطل، ما دام عاطلاً، دخلاً يكفيه ومن يعول، وذلك من موارد الزكاة (والحق المعلوم للسائل والمحروم)[1]، وهو الأفضل والأحسن، أو من موارد ضريبية مفروضة مباشرة أو غير مباشرة على الموسرين والقادرين، أو من ريع أوقاف قديمة، وهي كثيرة في كل بلد، أو مشاريع حديثة برؤوس أموال مشتركة بين الدولة والمحسنين الموسرين.. وأصحاب رؤوس الأموال.

د . الضمان الصحي: وهو توفير العلاج والرعاية الصحية والدواء مجاناً، وذلك بتشريع قانون ثابت لهذه الغاية، ويزود كل عاطل عن العمل ببطاقة تشعر بحالته، وتموَّل مؤسسات الضمان الصحي من الزكوات المجموعة، وصدقات التطوع، وتبرعات المحسنين وغير ذلك.

II . علاج السبب المتمثل في العاهات، والعلل، والأمراض المزمنة:

مما لا شك فيه، أن علاج انتشار المتسولين من المرضى والمعلولين، والمشوهين والمقعدين والعجائز المُعمِّرين.. هو جزء من علاج ظاهرة التسول جمعاء، وهو أمر ضروري، عاجل وملح وهو واجب اجتماعي وديني وإنساني.. وهذا العلاج كما أتصوره يكون بإقامة المشافي المختصة، ومراكز الرعاية والتأهيل للعمل، فالمرضى المحتاجون للعلاج والتداوي، يحالون إلى تلك المشافي يتلقون ما يحتاجون إليه مجاناً، حتى يشفوا ويخرجوا ليجدوا فرص عمل مناسب تنتظرهم وذوو العاهات والتشوهات يرسلون هاتيك المراكز ليتلقوا فيها العناية والاهتمام والإعداد والتأهيل، كل حسب ما يناسبه من الإعداد، وحسب طاقته واستعداده.

فإذا ما تم تأهيلهم وإعدادهم للمهن و الحرف والأعمال المختلفة الملائمة أحيلوا إلى قطاعات العمل الإنتاج ليصبحوا أعضاء عاملين نافعين، وهكذا..

وليس ينكر ما قامت به بعض الدول العربية والإسلامية، من مساع وجهود في هذا المضمار، غير أنها لم تبلغ حتى الآن، ذلك المستوى الذي بلغته في بعض الدول المتقدمة، والذي يكون العلاج معه شاملاً وحاسماً.

إننا لا نريد حلولاً ترقيعية وسطية أو علاجات ترقيعية بجهود تدريجية، بل نطمح ونريد أن تكون الجهود منصَبّة بكثافة كافية لتحقيق النتائج الحاسمة.

إننا نعرف أن هناك مؤسسات اجتماعية لرعاية المكفوفين والصم والبكم، وجمعيات خيرية للاهتمام بالعُجّز والمقعدين والمشردين والأيتام.. إلا أنها ليست في المستوى المطلوب.. وليست من الشمول بحيث تفي بمهمات العلاج الكامل الحاسم.

ولقد انتهى إلى علمي أن بعض المتسولين من المعطوبين والمقعدين وغيره يفرّون من بعض هذه المؤسسات والجمعيات كلما أتيحت لهم فرصة الهرب، نظراً لسوء المعاملة نقص الرعاية والاهتمام الذي يجدونه فيها.

---

[1] ـ إشارة إلى قوله تعالى: (والذين في أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم).

وكثير منهم . حسب استطلاع رأي بعضهم . يؤثر أن يبقى خارج هذه المؤسسات، يتسول حراً من القيود والمضايقات والحصارات التي يتعرض لها داخلها!.

حقاً إنهم بشر، لهم مشاعرهم وعواطفهم وميولهم ورغباتهم كغيرهم، وليسوا ماشية أو أنعاماً تحبس، ويُقدم لها الطعام والشراب وبعض الخدمات.

لذلك يجب أن توفر لهم هذه المؤسسات كل المرافق والخدمات والوسائل، والمتخصصين من المربيات والمعلمين والمدربين.. أي كل ما يحتاج إليه المواطنون العاديون في حياتهم.. وربما أكثر! أما الذين أمضوا مرحلة الإعداد والتأهيل، فينبغي وضعهم في مواضعهم الملائمة من المجتمع فور تخرجهم، وأما الذين هم زمنى ومقعدون دائمون فيجب تمكينهم من مخالطة الناس، والانخراط في نشاطات المجتمع دائماً، أو . على الأقل . بين الحين الآخر.. بواسطة الدراجات والعربات المناسبة، وما إلى ذلك من الوسائل لكي يشعروا بالتعاطف والمشاركة والسوية مع المجتمع، ويستأنسوا ويتعرفوا على تيار الحياة، ويعيشوه، فلا ينحرفون ولا ينعزلون، ولا تغزوهم الأمراض النفسية المختلفة، ولا يغشاهم الحزن والكآبة وقد تكون بعض الأعمال اليدوية وغيرها ملائمة وصالحة لهم، كل حسب ميله من رغبته واستعداده وقدرته، ومساعدة لهم على بلوغ حالة الشفاء والارتياح والرضا..

ملاحظة هامة:

نترك، هنا البحث في علاج السببين الآخرين لظاهرة التسول وهما:

الطلاق، والتشرد، لأننا سنبحثهما في موضعهما من هذا الكتاب على أنهما ظاهرتان من الظواهر المرضية الاجتماعية فيرجى الانتباه.